المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السابع والتسعين

يوليو سنة ١٩٤٠ — ٢٥ جمادى الاول سنة ١٣٥٩

مهمة رجال الفكر

في أزمات الحضارة

عند ما تنتاب الحضارة أزمات روحية واجتماعية تضطرب فيها الموازين، وتتداعى الأركان، ويضل الطريق أمم الانسانية، تقع على عاتق رجال الفكر مهمة جسيمة. ونقصد برجال الفكر (intellectuals) أولئك الذين هم التأمل في مسائل عصرهم الأساسية وتفصيلها. فقد يكون الواحد منهم فناناً أو فيلسوفاً أو عالماً أو رواتياً أو زعيماً من زعماء العمال. فقد كان مهمة المصرفي أن يعنى بتصريف اختصاصه فنظرة يعبر عليها من الشأن الخاص الى الشأن العام فهو بهذا التعريف من رجال الفكر. ونرأي ان مهمة الأولى بذل المساعدة لسائر الناس لتهم امم التي تسيطر عليها وتمكنهم من السيطرة عليه سيطرة أوفى، مرتبتها الاولى سيطرتهم على النفس. وكل رجل من رجال الفكر ينبغي عناية صادقة بهذه المهمة لا يسعه اهمال امرين واحد منهما لا يجب ان يكون له خطر بالغ جس في الحضارة نفسها. ان السعي الى تحقيقها تبعة جسيمة والقيام بها عمل لا يستهان به. ولا يسلم من تأدية هذه المهمة على وجهها الأوفى بمقتضى ما تحتاج معركة الحضارة في هذه الحرب العقلية والأدبية الا الانزواء في برجه العاجي وترفعه عن كل ما يتدنى الا ما يتعلق بغرض المعركة العام. ولا يقدر عليه فهم العلل الخفية فهماً صحيحاً واقتراح علاجها علاجاً ناجعاً.

هذا الرأي لا يعترف بحد فاصل بين « النظر » و « العمل » ويصر على ان مبدأ « برج العاجي » مبدأ خاطىء من الناحية الخلقية، ويؤكد ان كل رجل من رجال الفكر يستحق هذا الشرف يجب ان يرى نطاق اختصاصه جزءاً من آفاق الانسانية الواسعة او ان يدرك مغزى

اختصاصه الاصيل بتخييم اوسع آفاقه، ويذهب الى ان حياة التأمل المحض اي حياة التفكير المنفصل عن آثار ذلك التفكير، انما هي حياة لا يرغب فيها بل تعدّ حياة للاهداف التي يطلب التأمل من اجلها. فنحن نتأمل في موضوع لكي نفهم. وغرض الفهم لا يتحقق إلاّ اذا انتهى الى نتائج يمدو اثرها في حياتنا العملية

فبهذا الوصف والتحديد لا يجوز لرجل الفكر ان يقف موقف متفرج متجرد، من شؤون عصره كأنهُ يزن قطعة من المعدن لا يهمه اذا زادت ستة ارباعاً او نقصت ستة ارباعاً. ولكن هذا التجرد في ما يتعلق بمسائل السياسة والاجتماع والاخلاق متعذر بحدّ ذاته، ولو كان متاحاً لوجب على رجل الفكر الصادق ان يهمله وان يختار بين مبدأين اخلاقيين او مذهبين سياسيين او غير ذلك من حيث رأيهُ في تأثيرهما في فهم الحياة فهماً أوفى والسيطرة على العالم سيطرة أدق

ان الحياة تطالب «العمل» من ابنائها. ولا قيمة للفكر الاّ اذا كان توطئة للعمل. فنحن جميعاً نسعى — واعين وغير واعين — للتأثير في سلوك الناس وتوجيهه وجهة دون اخرى. قد نختلف في مدى تسامحنا في سلوك لا نوافق عليه ولكننا لا نستطيع ان نقف موقف متفرج مجرد كأنهُ لا يهمنا. فالتجرد في النظر الى هذه المسائل يفكر ان للاختيار قيمة، وان وظيفة المعرفة تمكين الناس — عن طريق التجريب والاختبار — من ادراك مراتب من السعادة نخطئها لسلف

والواقع انهُ يتعذر ان تثير موضوعاً من موضوعات الحياة والاجتماع، جدير بالتأمل من غير ان يكون للتأمل فيه تأثير في سلوكنا. انك لا تستطيع ان تتأمل في موضوع التجارة الحرة والمقيدة بقيود الحماية، ولا في موضوع الفن وهل هو تسلية او عامل اصيل في الحياة البشرية، ولا في موضوع الدولة وحدود ولا في مكانة العلم الاجتماعية، بغير ان يكون لرأيك تأثير في سلوكك وسلوك من يستوحونك. وسواء كنت مهندساً او محامياً او طبيباً او صحافياً او معلماً فتفكيرك في صميم عملي لانزاع الكون في قالب تريد انت، وتوجيه حياة وجهة تروقك وتؤثرها على غيرها. ونحن نختار الوجهة سواء اخطأنا كانت ام صائبة، ولكن لا مفرّ من الاختيار. فأن قرار الامتناع عن الاختيار هو اختيار صريح

ومن هنا يتضح ان مهمة رجل الفكر الاولى هي ان يرى الامور على الشكل الذي يبدو له في صلاته الخاصة وليس في تدريج النظر مع رجل واحد من الناس ترى في الناس غيرهم لم يكن جندياً في حرب الدائمة الناشبة بين قوى الخير والقوى المضادة بعبارة اخرى قوى الجمود. فكوبرنيكوس وجد ان الارض ليست مركز الكون الذي تدور حوله الشمس والكواكب وان حركة الارض هي التي تسبب ظهور الشمس كأنها تدور حول الارض. فأحدث انقلاباً في نظرة البشر الى انفسهم وكان سبباً في خطوة كبيرة الى الامام في سبيل التقدم العظيم في علاقات الناس بعضهم ببعض. وديكارت لم يكن رجل فلسفة جديدة تتناول مسائل وراء الطبيعة، بل كان على غير وعي تام منهُ رئيساً في حركة القرن السابع

عشر التي أنقذت من سلطان الملوك والكنيسة على حياة الناس. ان هوبس ولوك في القرن السابع عشر وفولتير وآدم سميث في القرن الثامن عشر كانوا يدركون انهم يخوضون معارك عظيمة يتوقف على مصيرها نتائج اجتماعية عظيمة الشأن. واذا كان نيوتن وهالي ولابلاس لم يدركوا مغزى ما احدثوه من انقلاب اجتماعي بمكتشفاتهم الفلكية فان ذلك لا ينقص مثقال ذرة من تأثيرهم الحقيقي في احداث ذلك الانقلاب. فالعالم لا يدرك على حقيقته الا اذا فهم فهماً شاملاً يعم نواحيه الخاصة. واذا كان شلي قد غنى ان الشعراء هم مشرعو الارض لانهم الابواق التي تدعو الى الكفاح، فجميع رجال الفكر بحسب وصفنا السابق يقع عليهم وشاح الشعراء

* * *

ان عصرنا يعاني نزع حضارة ومخاض حضارة اخرى. وهذا التضال يشبه في اصوله عصوراً سبقت اجتازت فيها الحضارة مثل هذا المخاض. فثمة شريعة جديدة للآداب تنازع أخرى، ونظام جديد للاقتصاد ينافس آخر ليحل محله، وطبقة جديدة تناضل طبقة قديمة لتنزع منها مكانها في عين الشمس. والدولة القومية تبذل جهدها للمحافظة في اثناء نظام اجتماع جديد موحد تكيف اجزاؤه بعضها على بعض، وهو نظام منطور في ثنايا تقدم العلم والصناعة في عصرنا. جميع المبادىء و« القيم » الأدبية والاجتماعية تصور الآن في بوتقة واحدة. ونحن نعلم على وجه الثقة ما تكون المبادىء و« القيم » الجديدة. ولذلك نحس — كما أحس رجال عصر الاصلاح مثلاً — قلقاً ذهنياً لا بد منه في كل عصر يشعر اهله ان اركانه مزعزعة وموازينه مضطربة. اننا نخاف عندما ننظر الى الماضي لنستوحيه. ثم نضطهد لاننا خائفون. والعقل يقتضي منا في عهد أزمة كهذا العهد ان نقيم الدليل على صحة القواعد والاصول، ولكننا لا نعلم ما تكون نتيجة البحث بعد ان يفعل العقل فعله. ولذلك نبث تحت اسماء شتى اتوالاً خائفة تبلبل العقل. فواحد يقول « انسلالة » وآخر يقول « روح الشعب »، وثالث يريد تجديد النزعة الامبراطورية. وكل يحاول بسريته ان يفرغ في قالب قديم جسماً لا يوافقه هذا القالب. فاذا قال أحد ان هذا النوع من الوحدة او ذاك لا يستقيم الآن، اشتد النزاع وضحى الاستبداد، وليس في معتقل هذه الايام ما يصحه من أسانيب التي والتشريد مما لم يسبق له مثيل في عصر سابق الا استفحال القدرة على المبالغة في التعذيب.

فالمعركة الدائرة الرحى الآن ليست جديدة في مبدئها، وانما الجديد فيها هو شدة السلاح في ايدي المتحاربين. حتى الاسانيب لم تتبدل في أساسها. وقد وصفها أرسطو وصفاً دقيقاً في كتابه « السياسة ». ان رأي موسوليني في استغلال الحبشة، او رأي هتلر في حرية الامة التشيكوسلوفاكية، قديم قدم الاثينيين. إننا نجد هنا كما نجد هناك الدولة التي يجب ان تعد بحرمة لتسويغ الاعتداء عليها، والطابور الخامس وفرس طروادة، والقول بان كل مخالفة لرأي الزعيم خطيئة لا تغتفر، والنزول بحكم القانون الى حكم مشيئة الرجل الذي في يده

السوط او الرشاش ، واختراع الاوهام والاساطير لتعزيز الثقة في نفوس الامة ، وكم خصوم لا تنتظم صفوفهم فيقولون كلهم ضد الطغيان ، وتثبت المفكرين الذين لا يجارون الطغاة ، والايمان بان الضعف خطيئة توجب معاقبة صاحبها لا الرأفة به . هذه هي ميزات الازمة التي نجتازها ، وقد اتصفت بها من قبل الامبراطورية الرومانية قبيل انهيارها ، وكانت في عصر الاصلاح والحرب الاهلية الانكليزية ، والثورة الفرنسية تمهيداً لقيام الطبقة المتوسطة وتقويضها زمام السلطان ، وكانت كذلك في عصرنا من ميزات النظام الذي أفضى الى انشاء الحكم السوفياتي في روسيا ثم النظام السوفياتي نفسه

انها أبداً قديمة وأبداً جديدة . هي قديمة لأنها ماثلة أمام رجال الفكر في كتب التاريخ وكأنها تناديهم الى بحثها والاعتبار بها . وهي جديدة لأنهم يلمسونها او يتلمسونها في فترات الرخاء والصفاء عندما يرتفع صوت العقل . فاذا أخذت الأزمة بخناق العالم لاسباب يعرفونها — وان كان مدى معرفتهم إياها أبعد مما يسمون به — يأخذهم الذعر فيعلنون الاستنكار والتسخط ولكن مشهد الآلام التي تصحب النضال تحز في قلوبهم فيصرفون النظر عنه متوهمين ان ما حدث في بلد آخر لا يمكن ان يحدث في بلدهم وان لا شأن لهم في هذه النزاعات الدولية ، وان لكل شعب حق اختيار شكل الحكومة الذي يرضاه . ويتمادون في اوهامهم فيقولون في ذات نفسهم لنحتفظ برباطة جأشنا فلا بد ان يبلغ المد مداه ثم يعقبه الجزر فنلتقط سوقف الشعرج للتجرد المتسامح . ويقررون أخيراً ان الفن رائدهم فيجب ان يصرفوا عن مجاراة الناس الى تشريح الظاهرات الحديثة كما يفعل الطبيعي عندما يبحث الذرة او كما يفعل البيولوجي عندما يشرح الخلية . وفي ذلك يتخذون خطتهم قاعدة مؤداها العمى في اعماقهم مزدوجين عن الصراخ لا يسمعهم أحد عندما تخمد ثورته نفوس حالات الناس بعضهم يعلل الى حالتها الطبيعية الروية ويسود سلام طويل المدى ، على اعتبار ان الفعل وردة الفعل في الطبيعة متساويان

في جميع البلدان في عصرنا نجد طائفة كبيرة من رجال الفكر اقتنعوا بعجزهم وبعجز أمثالهم عن حل المسائل الاساسية في عصرنا . بعضهم يتألم من شأنهم الذي أنهم حاروا لا يجدون له شاعر في عرفهم يكفي في عزلته ، ومصور في تصويره ، والطبيعي في معمله . غير ان هؤلاء — والطبيعيون ليسوا — في رأيهم — من المتورطين في دراسة الشؤون السياسية خير من لا يهتمون بها وحتى اذا وجهوا عنايتهم بها يجدون لهم بعض ما يشعر او يصور او يعمل . فهم يقسمون الحياة قسمين احدهما اعمالهم الخاصة والثاني لا يعنون به

ولكن الحياة ليست كذلك ، فكل عمل فعلهُ له تأثيره في كيان المجتمع ذلك التأثير كبيراً او ولكل عمل من اعمالنا مغزى اجتماعيٌّ وسياسيٌّ واقتصاديٌّ ، واعمال الناس متفاعلة .

صورة تخيلية لأرسطو وأفلاطون

وهما ابلغ مثل على جبال الفكر الذين يعتبرون مسائل الاجتماع الاساسية

فلوسيتي الذي يعترف قطعة من يشوفن بعضها بعضاً من نفسه وفي فترة « شلي » اصدقاء من خالطهم شلي وناقشهم في شؤون الحياة والاجتماع . واذا شئت ان تضع كتاباً تصب فيه البيئة الثقافية التي وضع فيها كتاب لابلاس « الميكانيكا الكونية » رأيت نفسك مضطراً ان تضع مؤلفاً في تاريخ الثقافة ، فلا يكون الا جزءاً من تاريخ البشر الثقافي والاقتصادي والاجتماعي مدى قرنين من الزمان قبل لابلاس

وليست ثمة ريب في ان ما يفكر فيه الناس في عصر من العصور ولا سيما في عصر ازمة ، له شأن حاسم . واذا كان لتفكيرهم هذا الشأن فمهمة رجال الفكر ان يبذلوا ما في وسعهم لتوجيه هذا التفكير وجهة ترفع من قيمة الحياة وتصلح من احوالها . فاذا صح هذا القول فليس في وسع رجل الفكر ان ينزل عن مهمته ، وهي كما وصفناها التأمل في مسائل عصره الاساسية وتقصيها . إنه يتأمل بغية ان يحل تلك المشكلات . فعمله في منزلة عمل المرشد الى الطريق . انه يقيم الحجة والدليل على ان الطريق الذي يشير اليه خير من غيره ، ولكن لا يجوز له ان يقف عند حد اقامة الدليل . لان ذلك اعتراف منه بأن الفكر منفصل عن العمل مع ان العمل هو الغرض الذي يتجه اليه كل فكر مبدع . فاذا فعل ذلك فكأنه نزل عن اختياره عن الفرصة المتاحة لزعامة . فكل كتاب وكل خطاب وكل قصيدة حجة غرضها ان تدفع الناس الى السير في جهة معينة . فالوقوف دون السير فيها خيانة للفكر نفسه

ذلك انه اذا اكتفى رجل الفكر ببيان صحة رأيه وفساد رأي خصمه ، ثم ترك الحكم النهائي لسامعيه ، فالغالب ان يفوت سامعيه مغزى رأيه الاساسي او يعتقدوا ان الاختيار بين رأيه ورأي خصمه ليس بذي شأن . فمهمة رجل الفكر ان يفكر لنفسه فذا أبى ان يعترف بالوحدة بين الفكر والعمل فكأنه ينزل عن السلطان لآخر لا يدرك مغزى فكره او قد يدركه وينكره او يفسده

وتاريخ التفكير السياسي دليل ناهض على صحة هذا القول . فالمفكرون الذين أثروا في عصورهم بعصور التي تلتها — مثل افلاطون وهوبس ولوك وروسو — وكان لهم شأن في تاريخ افكار الناس في قرونهم الخالية ، كانوا جنوداً في معارك العقل التي نشبت في عهودهم خلقة فلم يكتفوا بالوصف بل كانت تملكهم حماسة شديدة للاقناع ، ولا بتفسير العالم بل بالرغبة في تغييره . وليس من يزعم انهم خانوا بعملهم هذا مهمة المفكر الخالص ، بل على الضد من ذلك كانت عنايتهم بتوجيه الحياة التي يحياها الناس ورغبتهم الصادقة في اصلاحها ، مما أحاط أسماءهم بهالة من الكرامة وأتاح لافكارهم فرصة الاثمار ، ولو انهم كانوا أقل عناية مما كانوا بالتأثير في عقول الناس ، لكانت عنايتهم بتفكيرهم أقل كذلك . لأنه من المتعذر على مفكر ان يدرس التنظيم الاجتماعي بغير ان يشعر

ان المعاني التي يخلص اليها من هذه الدراسة شيء حيويٌّ أساسيٌّ في حياته

وقد يقال ان هذا يصحُّ على الذين جعلوا دراسة المنشآت والنظم الاجتماعية موضوع اختصاصهم ولكن لا يفهم لماذا يجب على الروائي او المهندس او الطبيب او الموسيقي الذي يعنى بهذه المسائل . ولو عاشت جاين اوستن الروائية الانجليزية ، وأديسون المخترع الاميركي ، بهذه المسائل اكانت رواياتها الاولى ومخترعاتها التالي اتم وُجود ؟ الجواب بالنفي على الاكثر . ولكن وضع السؤال هذا الوضع غير صحيح . لأنهُ يجب ألاَّ ننسى ان العالم الذي اتاح ظهور عبقرية جاين اوستن او لستر او اديسون انما كان كذلك لان عشرات ومئات من الناس عاشوا وماتوا ليبلغوا به المرتبة التي بلغها وفي طليعة هؤلاء رجال الفكر

***

لا ريب في ان كلاً من الناس يجب ان يعمل ما يجيده . ولكن رجل الفكر الذي مهمتهُ التفكير في مسائل عصره الاساسية ، لا يستطيع ان يفكر تفكيراً مبدعاً الاَّ اذا استطاع ان يفكر تفكيراً حرًّا وان ينقل نتائج تفكيره الى غيره بغير قيد . فاذا كانت القوى الخفية متجهة بالعالم الى جعله سجناً كبيراً تعذر التفكير الحر إلاَّ على السجانين . واذا كان كل همِّ هؤلاء ان يحتفظوا بمناصب السجانين فعليهم ان يقدعوا كل فكر يتحدى سطوتهم وقدرتهم على بقاء العالم راسفاً في السلاسل . فرجل الفكر في اجتماع من هذا القبيل مضيع . إذ لا مجال لعمله الرئيسي . فلا يستطيع في هذه الاحوال ان يوجه سؤالاً ما إلاَّ اذا كان سؤالاً يسرُّ السجانين . وقد بلغ من دقة التنظيم في السجون والمعتقلات ، ان مفكر اليوم لا يستطيع اذا سجن ، ان يعمل ما فعلهُ غيرهُ من قبل في العصور الماضية ، اي ان يدوِّن افكاره في رسائل تهرَّب من السجن الى جماهير متلهفة عليها . بل تنزل عليهِ ظلمة القبر وسكونهُ . ان مجرد الهمس باسمه يعتبر تحدياً لاصحاب السلطان تجب معاقبتهُ

فاذا أراد رجل الفكر ان يكون أميناً لمهمته فعليهِ ان يصرف عنايته دائماً الى توضيح الاحوال التي لا يتم له في غيرها حق التفكير الحرّ والاعراب الحرّ عن الرأي . ومما لا ريب فيهِ ان هذا الحق يُنكر عليهِ في اثناء الحرب وفي ظل الحكم الدكتاتوري . فرجل التفكير يجب أن يناضل في سبيل السلام وضد حكم العصاة . وهذا النضال يقتضي منهُ ان يدرك البواعث التي تهدم السلام والاحوال التي تمهد للحكم المستبد . ولا يكفي ان يعرفها معرفة نظرية بل يجب ان تكون معرفة تمهد للعمل . اي يجب أن يشعر بأنهُ مسؤول شخصيًّا عن قيام هذه البواعث والاحوال . فاذا توهم ان المسألة كلها لا تهمه اصبح معواناً للقوى التي تهدم السلام وتوطيء للاستبداد

وفي العالم اليوم مئات من الرجال والنساء أدركوا بالاختبار صدق هذا الكلام . فقد تحولوا

عن المعركة واختاروا ألا يختاروا مترفعين عن خوضها معتصمين بأبراجهم العاجية . ولكن القوى التي تحاصرها نزعتهم من تلك الأبراج وزجتهم في المعتقلات او شردتهم في مشارق الارض ومغاربها . لم ينجهم فضل سابق كفضل مرتزهايم في اختراع طريقة تثبيت التروجين التي مكنت المانيا من مواصلة الحرب الماضية سنين ، ولا منزلة علمية او ادبية عالية كاينشتين وتوماس مان . ان قانون الحكم مستبد في ما يتعلق برجل الفكر واحد لا يتغير في جميع العصور . انما يأمر المفكر بقضاء الحياة جانباً على ركبه . ولكن المفكر الحقاني ليس بمفكر لان جثوه يحميه على التضحية بنشاط العقل والضمير ، مع ان هذا النشاط سر حياته وغايته

ويجب عليه ألا يكتفي بأنه يؤمن بالحرية ووجوبها ، بل عليه ان يتقصى الجانب الذي تهب منها رياح الاضطهاد من اليمين او من اليسار ، من اصحاب المال او من محروميه ، لان الحرية شيء معقد في نظام اجتماعي يتضافر فيه العلم والصناعة والمال والعمل اليدوي على الانتاج وتوزيعه . وهي لا تبيح اسرارها الا للذين عقدوا خناصر الولاء لها ، وهذا يعني ان رجل الفكر عدو للامتياز واصحابه ، فعليه ان يثبت ضيعة الامتياز مهما تكن خفية ومستورة . فالاجتماع الحر الذي يكافح في سبيله يجب ان يكون اجتماعاً فيه مساواة . فاذا كان متأهباً للدفاع عن الحرية فعليه ان يكافح في سبيل المساواة . وفي اجتماع حر آمنه المساواة لا يقام الوزن إلا لكرامة الانسان وبغير الاعتراف بهذه الكرامة فلا يمكن الفوز بالحرية والاحتفاظ بها مدى طويلاً

ان مهمة رجل الفكر على النحو الذي اوجزناه فيه مهمة شاقة محفوفة بالمخاطر ، ولا سيما في عصر ازمة . ذلك ان الخوف هو الشعور الذي يسود عصور الازمات . فالذين بأيديهم مقاليد الامور يخافون بوجه خاص الآراء الجديدة التي تهدد من سلطانهم فيضطهدون ويضطهدون

ثم انهم يدركون ان احد اسرار قوتهم هو سيطرتهم على عقول الشباب فيفرضون عليها تفكيراً مقيداً من نوع خاص . يعلمونهم تاريخاً يروي حوادث وفقاً لهوى الحكام . والقصائد سخرت فيه لتسويغ طلباتهم ومطامعهم . فرجل الفكر الذي يقدم على تأدية المهمة التي اوجزنا هي كتابة صدق تأدية يجب ان يعلم انه سيلقى شجعاً عنيفاً وان في كل لغة من اللغات وعند كل مستوى من الطريق يتصدى له ما يمنحه شجعاً جديداً . ولو رضي ان يعد احد الخادمين الذين راحة ورخاء وتصفيق الجماهير وصداقة الحكام مهمة رجل الفكر ليس فيما يقرره اذ بعد بأن من يؤدي المهمة يفوز بحترام النفس . إن طريقه هو طريق الالم والسجن والموت وكل عمله هو في كونه جندياً في « حرب تحرير الانسانية »

(عن راسل نقلا في مجلة هاربرز بلز خلاصة السياسي الاستاذ هارولد لاسكي)